تشيخوف صديقي

فلاديمير جلياروفسكي

> لا يمكن القول انني استسهل الكتابة عن تشيخوف الا أنه، في اليوم الذي تسلمت فيه برقية وفاته المرهقة، طفقت بانوراما حياته ذاتها كاملة تحضر أمامي...
> لقد عرفته شخصياً وكان يكتب بصورة عرضية لصحف مختلفة، قليلة الشهرة، أو يقوم بكتابة مقالات نقدية ليست لها أهمية كبيرة لناشرين تافهين كان اتصالنا بادئ الأمر قائماً على لقاءات عابرة، الى أن اصبحنا صديقين على نحو سريع أخيراً...

لقد تزوجت عام 1848. فارتبطت عائلتانا تماما.

أتذكر أنني تسلمت، أحد أيام سبت، حوالي مئة روبل بمثابة مكافآت عن أسبوع. سمعت أن تشيخوف قد عمل فيه قليلا جدا، فالتقيته مفاخراً بحظي الطيب. قال: "عليك، في هذه الحال، أن تبلغ زوجتك بأن تخبز لنا فطيرة كبيرة. فإننا جميعاً آتون غداً، وإننا لمصطحبون معنا ليفيتان أيضاً".

رسم ليفيتان، بعد الغداء، منظرين جميلين، في دفتر وجد فوق منضدتي:

البحر في ضوء القمر والصفصاف المكسو بالثلج. أعقبه نيكولاي بافلوفيج تشيخوف، أخو أنطون، الذي كان رساماً أيضاً برسم رأس رائع لامرأة بالطباشير الأحمر والأسود والأزرق. رفع أنطون الدفتر وأمعن النظر فيه بدقة:

"ليست هذه بطريقة للرسم." قال أخيراً "لقد رسمت رأس امرأة لكن من هي؟ وذلك البحر. من يستطيع أن يخبرنا أي بحر هو؟ عليك أن ترسم أشياء كيما يعرف كل إنسان ما الذي تقصد إليه. ما الذي يريد الفنان أن يبوح به."

التقط قلماً وانحنى على الدفتر. وخلال بضع دقائق كان تشيخوف قد انتهى. قوبل رسمه بعاصفة من الضحك. فسلمني تشيخوف الدفتر قائلاً: "حافظ على هذا الرسم. فإنه العمل الفني الوحيد الذي أنجزته، أو ستعرف أنني أنجزته في حياتي. إنني لا أريد أن أحرم ليفيتان من مصادر رزقه." يمثل الرسم سائحاً يهبط من جبل معتمراً قبعة تقليدية مريشة، بعصا ألبية في اليد، برجاً، وحانة ذات لافتة نزل فوق الباب، وفي البحر زورق بخاري يتحرك بلطف مطلقاً دخاناً متقطعاً، وفي السماء، فوق الأمواج، تحلق طيور. كل مفردة في الصورة كانت مميزة على نحو متناسق: "البحر"، "الجبل"، "السائح"، "طيور النورس"، الخ.

كان الأخوان تشيخوف يعانيان من عوز شديد خلال سنيهما الأولى في موسكو. فقد كان أبوهما بائعاً مأجوراً معسراً. أما الطفلان الصغيران، ميخائيل وماريا، فقد كانا لا يزالان في المدرسة. خلال تلك الفترة، غالباً ما كنا، أنا وزوجتي، نقضي أماسي سعيدة في بيتهم. ابتداءً بالعشاء الذي يتضمن زلاطة البطاطا الشهيرة التي يتفننونها بالبصل والزيتون، والتي كانت تقدم، على نحو ثابت تقريباً، في تلك الأمسيات. حيث نواصل بعض فعالياتنا المتواضعة جداً. فلم يكن ثمة ورق لعب أو رقص، بل كان الجو كله مشرباً بدفء خاص، بالحب، بالمودة. فإذا ما صادف أن أثنيت على أي شيء خلال المساء، فستجده، بينما أنت مغادر إلى البيت، ملفوفاً ومدسوساً في يديك. ولم تكن ثمة وسيلة للرفض مقبولة. مرة، قدمت، خلال عيد الفصح، باسخا ضخمة للغداء. فأطرت زوجتي جمال النقش الذي على الباسخا. ولكننا ما إن قمنا بتوديع مضيفينا حتى قدمت لنا رزمة ثقيلة جداً، مع التحذير بعدم فضها حتى نبلغ المنزل. ثبت، أخيراً، أنها باسخا فحسب على شكل سنديانة معمرة رائعة.

حدث أن كانت روسيا، في وقت من الأوقات، بحاجة شديدة إلى مقالات عن أحياء الفقراء في المدينة، فكتب العديد منها حول هذا الموضوع. ومن أجل الحصول على المادة الضرورية لذلك، على المرء أن يصرف قدراً من الوقت كبيراً، طائفاً في تلك الأحياء الآهلة بالشحاذين السيئي الحظ. وكان أن عادت علي جولاتي بشيء من ذلك الحظ لقد أصبت بحالة من الالتهاب الجلدي، شديد في وجهي ورأسي، وبدرجة حرارة فوق الأربعين. وأصيب، علاوة على ذلك، ولدي البالغ من العمر السنة والنصف بالحمى القرمزية. لاشك في أنها ذات علاقة برحلاتي القصيرة إلى العالم السفلي. فاستدعى الطبيب فلاديميروف، صديقي الطبيب جداً إلى بيتنا، فأعان زوجتي والمربية التي كانت تعنى بالطفل. لقد زال مرضي الجلدي أخيراً، فيما أصيبت مربيتنا بالتيفوئيد. وسط منغصاتي هذه كلها، صادف أن زارنا تشيخوف، فأفزعه وضعي، ولامني لعدم استدعائه (كان تشيخوف طبيباً). فحص الصغير والمربية ودقق بعناية في الدواء الذي وصفه الطبيب. وكان مقتنعاً بما كان قد اتخذ. غير أننا جميعاً التمسنا الطبيب فلاديميروف عندما حضر بألا يجيء ثانية لتبليغ تقرير عن حالة مرضنا. لاقتناعه بعد إلحاح أظهر فلاديميروف استياءه مهنياً، ذلك لأنه هو الذي أعطى العلاج ولا يريد لأحد أن يتدخل في ذلك. كنا واثقين بأننا أقنعنا تشيخوف بالابتعاد، إلا أنه عاد مع ذلك ثانية بعد يومين. ثم أخذ يحضر كل يوم تقريباً ليرى إذا ما كنا نتحسن صحياً.

أصبحنا، بعد مرور السنين، نرى بعضنا أقل فأقل. فأيام السبت التي كنا نلتقي فيها في منزلي، وأيام الأحد التي كنا نلتقي فيها في منزله، قد انتهت منذ وقت طويل. كان تشيخوف في طريقه إلى القمة. لقد أثنت عليه الصحافة وأشاد به مسرح موسكو الفني.

على الرغم من أننا نادراً ما نرى بعضنا الآن، فقد ظل كل لقاء بيننا، مع ذلك، حميماً ومحترماً بالظرف كما كان دائماً. أتذكر الحادثة التالية:

ذات مساء، كنا تشيخوف وأنا في طريقنا إلى منزلي لشرب الشاي. ولم يكن، لسوء الحظ، سائق مزلقتنا من السواق الماهرين. فإجهاد السائق للحصان، ولنفسه هو، جعل من الاثنين كما لو أنهما أمضيا شيخوخة مشتركة لما يربو على مئة عام. فكلاهما كان من الكبر بحيث يتعذر تخمين عمره. المزلقة نفسها كانت عتيقة وبالية وقد مر وقت طويل على فقدانها متانتها. والثلج قد ذاب تقريباً وجرى على نحو صاخب مصلصلاً طوال الطريق المكسوة بالحصى. كانت الفرس المسنة العجفاء، من حين لآخر، تتوقف وقفات طويلة، مستجمعة قوتها من أجل دفعة من الجري أخرى، لتتوقف من جديد لالتقاط أنفاسها بعد ذلك. خلال واحدة من فترات الراحة تلك، اشترينا بطيخة متبلة ملفوفة بورق رمادي سميك، طفق العصير من خلاله يجري حالما فتحه تشيخوف. أخذت يداه اللتان تتجمدان فجعل يلعن. بقلق، خلصته من عبء البطيخة. بدأت يداي الآن تتجمدان. قلت أخيراً: "إنني نلت منها الكفاية" وكنت على وشك أن أطوح بها بعيداً.

أوقفني تشيخوف قائلاً: "لم ترميها، لنعطها لذلك الشرطي الذي هناك. سيلتهمها عن طيب خاطر. فقلت: "هذه فكرة طيبة" وناديت على الشرطي. سلمته البطيخة، وقلت له: "كن حذراً... فهي..." لم يكن لدي الوقت الكافي لإتمام تحذير الرجل لأن شيئاً مخيفاً قد تصيب منها، عندما قاطعني تشيخوف وهو يقول له هامساً بطريقة مسرحية مأساوية: "كن حذراً يا صاح - إنها قنبلة... أسرع بها إلى المركز...."

علمت في اليوم التالي بكل تفاصيل "القصة المثيرة" التي أعقبت الحادث. شق الشرطي طريقه ماشياً، بحذر متبوعاً بحشد أخرق من المتفرجين الفضوليين إلى المركز حاملاً لـ"القنبلة" بيدين ممدودتين. بعد قليل ازداد حشد الفضوليين خارج المركز - من الاقتراب أكثر، منهمكاً في اختلاق أساطير رهيبة على نحو مثير حول موضوع القنابل - الموقوتة المروعة بسبب موجة من الحوادث الأجرامية التي وقعت في المدينة خلال تلك الفترة. كان الجميع ينتظر أن يحضر الضابط المتخصص بالمتفجرات. فبدونه لا يجرؤ أحد على ولوج الغرفة حيث وضعت القنبلة مسجاة. تدفع رجال الاطفاء إلى الساحة في تلك اللحظة جرياً. إثر سماعهم الضجيج الدائر حول رئيس فرقتهم القوزاقي، القادم من اقليم الدون، كأنه أصبح جزءاً من الفتنة التي أوشكت أن تخمد تماماً فهو لا يزال يعتمر خوذته النحاسية، مستخفاً بالتحذيرات المرتفعة، منطلقاً نحو البناية. في ثوان استطاع أن ينتزع البقية الباقية من لفة الورق المبلل من البطيخة المخللة.

اشترى تشيخوف خلال الثمانينيات منزلاً ريفياً صغيراً في (ميلكهوفو) على مبعدة ثمانين كيلو متراً إلى الجنوب من موسكو. كان شغوفاً جداً بركنه الهادئ الصغير، كما أسماه هو، وأحياناً بـ (بستان كرزه).

من وقت لآخر، عندما تجتمع كل عائلة تشيخوف، في ميلكهوفو، خلال عطلات عيد الفصح بخاصة، احضر أنا أيضاً.

إلى اليسار من واجهة القاعة التي اتخذها تشيخوف مكتباً خاصاً له، التي كانت جدرانها مغطاة بالكتب، تباهت طاولة كتابته بحافظة أوراق تحتوي على بداية قصة أو رواية. فعندما يبدو منزله غاصاً بالضيوف يكتب تشيخوف بشكل متقطع. وعلى الرغم من ذلك فهو يتقدم بثقة منجزاً قدراً من العمل كل يوم. أحياناً، ينهض، على حين غرة، أثناء الغداء، تاركاً الخوان إلى مكتبه. يدون هناك بضعة جمل ثم يعود إليه مواصلاً الحديث من حيث انقطع. لقد كان العمل حبور أيامه. فليس من قواعد مقررة متبعة تشبه الواحدة الاخرى. بوسعك أن تقتحم عليه تشوش عليه. كانت طريقته، على ما أتذكر، تجري على هذه الشاكلة، دائماً.

إلى ميلكهوفو ألبي الدعوة على الدوام بسرور بالغ. أظن إن السنوات التي أمضاها تشيخوف فيها كانت أسعد سني حياته. كانت صحته في تلك الحقبة جيدة نسبياً. لقد أحب الطبيعة وكان مرحاً ومبتهجاً روحياً. إضافة إلى ذلك، لقد كان له فائض من وقت لكي يطيل النظر في حالته الصحية، وكانت لديه كتابته، وواجباته المنزلية، وحديقته التي يعنى بها. كان يقوم على نحو متواصل بحرث الحديقة أو بزراعة الأشجار والشجيرات. وإلى جانب هذا، كان هناك تيار الفلاحين - من الرجال والنساء على حد سواء - الذي ليس لحكايته نهاية، سكان الريف المجاورون الذين يجيئون بأوجاعهم وآلامهم لزيارة طبيبهم. وعلاوة على ذلك كله، ضيوفه الذين كان تدفقهم مستمراً هناك.

عندما يكون ثمة متخلفون خصوصاً إذ كن نساء، فإن تشيخوف بنفسه سيسوسنا نحن الرجال. سيتحرك في جموع داخل حمام عمومي. كان يسمى، آخر الأمر، بحق حماماً عمومياً، لأنه، بالإضافة إلى خلوة الاستحمام بملحقاتها، ثمة عدد وفير من الغرف مجهز بالأسرة والأرائك وبكل وسائل الراحة. كنا نقضي أوقاتاً رائعة هناك، فنقرأ من أواخر المساء حتى الصباح الباكر.

كم أحب تشيخوف السهب - الأرض المعشوشبة اللانهائية. لقد كان موضوعاً مستديماً نتحدث فيه عندما نكون وحدنا، منعشاً لكلينا، يريحنا من الضغوط التي تسببها لنا النشاطات العاصمة المحمومة.

في البداية من تعارفنا بالذات، وجد تشيخوف (ستيبان رازن وأميليان بوكاجيف) وشعراء إقليم (زابوروزي) من القوزاقيين. قال مرة: "إن سهبك سيعود يوماً ما حياً من جديد. "فذلك العدد من الرجال المتمردين الثائرين بالغضب، الذين صورتهم، سينهضون بقوة لا يمكن إسكاتها. سيقع ذلك كله ثانية - يمكنك أن تثق... أنت وأنا فحسب لن نكون هنا لنرى ذلك. لكن ذلك سيقع. إنها ستحدث قريباً بالتأكيد، لكن بعظم وحجم أكبر، هائلة ومنتشرة في كل مكان. أما اليوم فغير معلوم. في كل تجمع، في كل قرية صغيرة يحيا كامناً ثمة رازن أو بوكاجيف.

تصعد الموضوع في يالطا، وفي كريميا، مرة أخرى، كنا نتحدث في الحديقة ثم أكملنا الحديث في مكتبته أمام النافذة المفتوحة. لقد أحس بتحسن كبير ذلك اليوم. قال: "إن أشخاصك - ناس الماضي جميعاً - أقوياء ومقتدرون ومنعمون ببطولة هائلة. أما موضوعاتي فهي عن ناس هذه الأيام، جميعهم فرديون، متجهمون، عاطفيون يئنون فاترين على نحو متواصل باكتئاب مقنط. بم تسمي "مادة تشيخوف" التي من المستحيل أن تفسد فساد المستنقعات. إنها تتعفن لكنها تجف في النهاية. فالخث الذي تحت الارض والاشجار التي فوقها ستشتعل أخيراً بفعل شرارات بالغة الصغر مكونة حريقاً هائلاً. لكننا لن نكون هنا لنراه. سنكون قد رحلنا قبله."

إن آخر مرة رأيت تشيخوف فيها كانت، في الواقع، في اليوم السابق ليوم سفره إلى الخارج، عام 1904. لقد كنت راجعاً تواً من الجنوب. فتلقيت في الوطن أنباء عن أن تشيخوف في حالة صحية سيئة وأنه سأل عني. وإن الأطباء هم من أرسلوه إلى الخارج لغرض العلاج. رأيت تشيخوف خلال باب مكتبه الموارب جالساً على أريكة تركية واضعاً قدميه تحته. كان وجهه مغضناً ومغطى بما يشبه لون الشمع وكذلك يداه. لدى سماعه خطاي رفع رأسه وخلال لحظة فقد وجهه تعبير التجهم والانهاك، متحولاً إلى وجه مندهش جذل. تضيء عيناه بفرح ملازم لإشراق ابتسامته.

"جلياي، صديقي العزيز، هلا أتيت وجلست هنا إلى جانبي على الأريكة" هتف، دافعاً قدميه أكثر إلى الخلف. "لدي ثلاث قناني من نبيذ البورت الفاخر جداً." أخذت يده الواهنة بيدي. كانت حارة ويابسة.

وسأل "أين علبة سعوطك؟"

سلمتها إليه. تناولها ممراً يده على سطحها برقة، ثم قربها من أنفه. "لها رائحة السهب" قال: "أين كنت؟" أجبت: "في الخارج، في اقليم الدون - وسط الخيول." استغرق في التفكير "وأنا، أرسلني الأطباء إلى الخارج. ود، السهب، السهب... أنت محظوظ بالتأكيد لأنك قادر على الرحيل إلى هناك. أعني حيث تنصرف إلى شعرك وتمتلك القدرة على كتابته. إنك أسمر اللون جداً - كإله برونزي تماماً - لا تشبهنا نحن المخلوقات البائسة التي تعيش هنا".

أخبرته بكل ما يخص الخيول وكدح السهبيين الضني. أصغى بهدوء وانتباه بارماً طرف شاربه طوال الوقت. ثم ارتخت يده، وسرحت عيناه في نظرة بعيدة... وببطء، مال رأسه إلى أن استقر على الوسادة.

قال: "سأنام لحظة فحسب. لا تذهب." لقد نام. نظرت إلى وجهه الغائر الحبيب، المستلقي، هناك في سكينة. إلى يديه الصفراوين المزرقتي العروق - الساكنتين تماماً، الهامدتين تماماً

*باسخا: طبق عيد الفصح الروسي التقليدي، يعد من الجبن الطري، الزبد والزبيب.

ترجمة: يحيى صاحب

السحري والإيروسي
كيمياء اللغة والجسد

د. خزعل الماجدي

لم تكن الفرصة سانحة، قبل ربع قرن، لأن اكتب بطلاقة نظرية عن السحر والجسد وعلاقتهما بالشعر لأسباب كثيرة منها أنني كنت منشغلاً بالحياة وبالشعر أكثر من انشغالي بمراقبتهما ووضعهما في إطار عقلي أو نظري مجاور، ثم أن النصوص الشعرية أكثر وفاءً للتجربة من النصوص النظرية خصوصاً عند تراكمها وتبلورها مع نضج التجربة وتصاعدها.

أستطيع اليوم أن أطل على ذلك السحري والإيروسي الذي تمثلته، ومازلت، شعراً وأنضجته الممارسة الشعرية مثلما أنضجته الممارسة الحياتية، بكل تفاصيلهما، وفق رؤية نظرية تتسم بثبات أفضل وتفاصيل أدق.

ولذلك كانت هذه المقاربة التي أستطيع أن أعممها على ما ورد في متون المجاميع الشعرية السبع مثلما أعممها على بقية أعمالي الشعرية في المجلدات الأخرى.. لكن هذه المجاميع السبع معنية أكثر بما في المقاربة من محاولة لرصد السحري والإيروسي وهما يوجهان كيمياء اللغة والجسد في هذه النصوص.

الفرق كبير بين أن ننظر للجسد كسجن للروح أو كفردوس لها، فحينما نرى الجسد سجناً للروح نقع، مباشرة، في ثنائية وهمية يكون فيها الجسد نقيضاً للروح وقد أطبقناه عليها وبذلك يتحول الجسد إلى عائق أمام انطلاقة الروح ويتحول كل ما في الجسد إلى شر ورذيلة ويصبح الكفاح ضده ضرورياً لتحرير الروح وكأن هذا الجسد قطعة لحم ميت تقبع تحتها الروح الجميلة المتحركة. وهنا نقع في الوهم أيضاً ويترتب على ذلك تدمير حياتنا بأكملها لأننا سنهمل هذا الجسد ونهمل حاجاته وسنراه مثل نفاية ننتظر يوم دفنها أو حرقها.

لكننا عندما نرى الجسد وعاءً للروح تتشرب فيه وتسعد بسعادته وتتحرر بتحرره وترقى برقيه.. فحين ذاك نرى في الجسد فردوساً لا جحيماً، نرى فيه خيراً لا شراً. وتكون الروح مثل الموسيقى التي تناغم مكونات الجسد وتشيع فيه الإنسجام.

وإذا كانت الروح تسعى للرقي والاتصال بالله والكون رافعة الجسد من محدوديته إلى المطلق فإن النفس تلتصق بالجسد وتحرك قواه وتكون كيمياءه العلنة والدفينة، إنها تشد الجسد إلى أغواره وأعماقه القصية وتهيئ مسرحه إلى الدراما اليومية من الاتصال والانفصال وإلى أشكال التفاعلات الضاجة بالحياة.

النفس تغوص في أعماق الجسد والروح وترفع الجسد إلى الأعالي وهما يكملان بعضهما. لكن النفس تحتوي على قوى سايكولوجية إيروسية وقوى برسايكولوجية سحرية تتناغم مع تركيبة الجسد ومادته الغامضة.

وهكذا تتكون من المنظومة الأنطولوجية (الجسد والنفس والروح) منظومة ابستمولوجية هي (الإيروسي والسحري واللوغوسي)، وتصوغ المنظومة الأولى حياة الفرد بينما تصوغ المنظومة الثانية قوته الفكرية والشعرية.

يختزن الجسد القوى السايكولوجية الحسية والبرسايكولوجية الفائقة (السحرية)، ويعمل الجسد مثل حاشدة كونية تضم داخلها كل قوى الكون والأنواع الحية وفيه يتحرك تاريخ الكائنات الحية متطايراً على شكل ومضات نادرة تطل على الدهش والكثيف والغامض والجميل.

ذاكرة التخلي

باهرة محمد عبد اللطيف

ما زالت اختنا الجميلة نائمة في كرسيها، كعادتها حين يستبد بها التعب. لكنها هذه المرة استطابت الإغفاء. فمنذ يومين وهي تغفو، أميرة بابلية صغيرة، تسند وجهها القمري إلى كفها الرقيقة، وقد ثنت جانباً ساقين متسقتين انحسر عنهما ثوبها الأبيض. خصلات شعرها الأسود البري تتهدل بلا مبالاة على كتفيها، في حين ظلت خصلة نافرة قصيرة تداعب جبينها المضيء مع هبات الهواء المنتظمة المندفعة من فوهة جهاز التبريد.

أرقبها من سريري المواجه للباب المطل على غرفة الجلوس، أراها تستريح على مقعد أبي الوثير الذي ورثه عن جدي، مقعد جلدي أنيق قد لا يختلف كثيراً عن سواه إلا في كونه يمتد طويلاً حتى ليحتضن جسد المرء كله وتعبه، فلا يضطر لترك قدميه تستجديان الراحة على الأرض.

كان أبي يدعوه بـ"كرسي الراحة"، وكانت أمي تسميه "كرسي التعب" لكثرة ما تشاجرنا وتخاصمنا ونحن صغار، على من منا يحظى بالاستلقاء عليه في غياب والدي.. ليس الاستلقاء تماماً، بل والتمطط والانزلاق على مساحته الجلدية الناعمة الممتدة طويلاً بالنسبة لحجم أجسادنا الصغيرة.

"والدكن متعب.. وهذا الكرسي مصدر راحته الوحيد فلا تحرمنه منه.. انزلن.. كفى.. سيعود فاقد الأعصاب".

كانت أمنا تردد هذه الكلمات كل يوم تقريباً بلا جدوى، غير أن جملة واحدة كانت تفعل فعلها في إعادة الهدوء والنظام إلى بيتنا الصغير: "ادخلن غرفكن..!" وكنا نمتثل دوماً، ولكن متأخرات، بعد أن يستشيط أبونا غضباً فينهر هذه ويزجر تلك ويعود منهكاً إلى كرسيه الأثير ليغرق فيه وفي سحب أفكاره ودخانه.

غير أننا بشقاوة الأطفال سرعان ما كنا نعود لنراه خلل الباب الموارب، نسترق السمع إليه ونتساءل ببراءة عن سر حزنه وتجهمه وهو يتحدث إلى أمنا بصوت ناء، آت من أزمان لم نعرفها، عن "حرس" و"أزلام" و"رجل أوحد" و"حمام دم"...

كم كانت ترعبنا هذه الكلمة الأخيرة.. عن أي حمام يتحدثون؟!.. أهو مثل حمامنا الذي نعرف أم أن له علاقة ما بالحمام الذي اعتادت نساء العائلة أن يترددن عليه في أزمنة ماضية وما تدور حوله من حكايات غامضة أيام الخميس؟!.

تنبهت اللحظة إلى أن وجه أختنا الجميلة بات أسمر، أشد دكنة من لونه المعتاد. وخطر لي خاطر أفزعني، ماذا لو لحظت أمنا إغفاءة شقيقتنا الطويلة، مع إنها اعتادت أن تقول: "دعوها تريح رأسها الصغير قليلاً.. فقد هدها التعب بعد عناء نهار أمضته في جمع قداح أشجار حديقتنا المتساقط لتعطر به منزلنا الأثير..".

لن تلحظ أمنا شيئاً، فعطر القداح ما زال يعبق في جنبات أرواحنا.. ولكن ماذا لو جف القداح!! ماذا لو فاح "عطرها" وبلغ أمنا! ستسألنا: ماذا فعلنا بصغرنا.. فبم سنجيب؟!!.

نحن الأربع قتلناها ببرود غريب. أنا ما اشتركت معهن.. بل فعلت إذ سكت...!!

وهن...!! هن مضين يلهين، وأنا مابرحت جامدة متحجرة على حافة سريري، أحدق إلى الفراغ تارة، وأطيل النظر إليها تارة أخرى، خلل الباب المشرع بدأ، أترقبها متى تفيق من إغفاءتها، أرقب تحول نومها، ليتها تستفيق الآن.. ليتها تصحو للحظة فقد طال سكونها!!

بالأمس كنت ألتقط أشواك الزمن الفضية التي نبتت غفلة في جسدي بعد أعوام الموت تلك.. كنت أتكوم كتلة حزن على سريري، أرتاد وحيدة بئر العمر المسمومة، أحصي قتلاها وأنوح، حين لقيتهن أمامي. مدت إحداهن يداً مرتعشة تحمل بضع أوراق تزدحم بالأسئلة، تطلب إلي أن أضع الإمضاء الذي اتقنته منذ الصغر، إمضاء أبي الذي ورثته بغيابه..

قلن لي بحزم: "ستكون كلماتنا مقنعة.. وغداً سيعود المخبر عن أحلامنا ليأخذ الأوراق"..!!

أردت أن أعترض، أن أصرخ، فما خرج صوتي.

منذ متى استبدلت لساني بهذه القطعة الخشبية.. وكيف!!

حاولت أن أسند الأوراق إلى ركبتي لأضع الخطوط التي أدمنت رسمها مراراً حتى أني كنت أضعها مغمضة العينين أحياناً، إمعاناً في الثقة بالنفس وتحدياً لشقيقاتي غير أني عجزت هذه المرة، إذ تراخت قبضتي وهوى القلم بعيداً...

(كانت الطائرات تئز.. تئز.. تنأى وتقترب.. تسدد فوهات جحيمها بدقة شيطانية، ترعد مسرعة وتمضي على عجل كمن يهرب من موت يطارده، وكان الليل يزداد كثافة ووحشة وبرداً كلما استعر الجحيم حين التقطت أختنا الجميلة الغائبة نايها الصغير وراحت تعزف.. وتعزف حتى طغى شجن عزفها على اصطكاك أسناننا وخفق قلوبنا.

أخذ الخوف.. يتراجع.. لتنفتح الذاكرة على لحظات مترعة بالدفء والضوء، بالضحكات والوشوشات، وبالظلال الراقصة. سكنت الأشياء وهدأت النفوس، فاحتضنا بعضنا بمحبة كبيرة ونمنا بعد أرق ليال نحلم بطفولات قصية).

شعاع الشمس يسقط من نافذة غرفة الجلوس على مقعد لم يعد أبي يستريح فيه مذ أدرك الراحة الأبدية، وخيوط الضوء تتكاثر، تضيء وجهها بقوة. الحد يبيض، يسطع ببريق أخاذ يؤلم العينين، ثم يعود ليخبو بغتة، يعتم إذ تقطع شعاع الضوء الساقط غمامة سوداء كبيرة..

ستسود أختنا الجميلة، وستحزن أمنا. ستبكي صغرانا حد ابيضاض العينين وستسألنا: ماذا فعلتن بأختكن؟!

حمداً للسماء أنها الآن في غرفتها تواصل صلاتها وتهجدها من أجل الغائبة، لن تدرك ما فعلنا..

كانت تحتضن رأسها دوماً وتداعبها معتذرة:

كيف قاومت وصمدت برغم محاولاتي المتكرر لقتلك جنيناً في بطني..!؟ كم كنت بلهاء حين خشيت مقدم بنت خامسة.. سامحيني..".

وما كانت لتنتظر أن تكمل أمنا كلماتها إذ سرعان ما تمطرها بالقبل، وهي تهمس بما يشبه الحياء: "صمدت بطاقة الحياة الكامنة في العروق.. سامحيني أنت.. حقاً لقد خيبت رجاءك..".

(حين ارتفع صوت المؤذن من مكبرات الصوت في الحي فرحنا، هللنا وكبرنا. كان صوته، بعد صمت مقبري امتد دهوراً طويلة، يؤذن بنشور ما. كهرباء سرت في الأجساد والأرواح استمدها الجميع من صوت المؤذن الذي طالما أقلق رقادنا مؤنباً وداعياً إلى الفلاح...

نهضت أختنا في ذلك الصباح الفريد، صباح له طعم النجاة من الكارثة، وخرجت بهمة من يمضي إلى عمل يعشقه لتعد البيوت التي خلت من ساكنيها. ثم عادت بعد ساعات، وأخرجت أكياس التمر التي كانت أمنا قد عبأتها منذ شهور بكميات التمر (البرحي) المتساقط حول نخلتنا الصبور، مدخرة إياها لأيام الهول والقحط تلك.

جلست أختنا الجميلة تنزع النوى بصمت عن حبات (البرحي)، تقدمها لنا لنأكلها، وحين شبعنا أصرت على أن تطعمنا المزيد. وبين الحين والآخر، كانت تحصي النوى لتقول أخيراً: "حسناً فعلتم. كفى ما أكلتم لهذا اليوم.." وما أن انتهت من مهمتها هذه حتى هرولت إلى الدور المجاورة، تغرس على مدى ساعات نواتين أمام كل منزل غاب عنه أهله، ليعودوا. علَّ زماناً يجيء، تكبر فيه النخلتان المزعومتان، فتحرسان وجود أهله، لاغيابهم، كما فعلت نخلتنا في أيام الموت تلك.

في اليوم الأول تبعناها، واستعجلناها العودة قبل المساء، وقبل أن يبدأ الجحيم الليلي دورته المرعبة في ابتكار الفناء. وفيما بعد صرنا نشاركها فيما تقوم به.

- واعتادت أن تحاورنا بحرارة المؤمن بما يفعل، تحدثنا عن بذرة الحياة، عن قوة الأشياء، في زمان الجدب واليباب. ولم تجد تعليقات بعضنا لها عن دور الفسائل في تكثير النخيل وعن النوى العقيم - المذكر - إذ كانت ترد علينا بإصرار: "الحرب مؤنثة، ولن تكون مطلقة العقم أبداً.. أبداً".. وتمضي في حفر التربة بأصابعها النحيلة القوية. ثم تأخذ نواة (برحية)، تقلبها وتضعها على جبينها كمن يقدس شيئاً، وتدسها في جوف الحفرة، ونحن من ورائها نهيل التراب، ونرجو السماء أن تمطر لتسقي نخلنا الموعود..).

بعد أن كبرنا وتجاوزنا عهد الشجار والاختصام على مقعد، آل "الكرسي" إليها. لم تكن تتذكر وجه أبينا إلا من صوره، غير أنها اعتادت أن تشير إلى المقعد الكبير المتطاول، مرددة: "سأرث تعب أبينا..". وما أن تجلس عليه حتى تتخذ هيأته حينما كان يغرق في التفكير. هي ما كانت معنا ونحن نسترق السمع إلى أحزانه المبهمة، إذ كانت ما تزل بعد محض فكرة هائمة مقترحة في رحم الغيب. بيد أنها فاجأتنا يوماً بكلمات غارت في لحمنا وذاكرتنا عن "رجل أوحد" وعن "حرس" و"أزلام" و"بحار دم"!!

تطلعنا إليها مأخوذات، كان لصوتها رنة صوت أبينا، ولوجهها المشرق تجهم وجهه في تلك اللحظات. حدثناها بخوف ورجاء، وتشاغلت عنا بحكاية عن طائر الروح الذي يتقن النجاة من فناء الجسد ومن حرائق الآخرين، وعن ورثته، سليلي أشواقه. يومئذ بكت أمنا بحرقة وعاتبت أبانا في الإطار. ما زلت أرقبها، أسمرة تبدو اليوم في ملائكيتها. وجهها يزداد سمرة ويتوهج حمرة بفعل الشمس التي ما كفت عن تقبيلها منذ الصباح. حدقت إليها طويلاً، حتى رأيت رموشها الطويلة من مكاني على حافة السرير، وقد ابتلت بما يشبه الدمع، إلا أن

غافياً كطفل آمن.

نقلت بصري مراراً بين أصابعي وبين وجهها الحبيب، اعتذر عما لم تقترفه يداي.. هن جرأن على رسم إمضائه.. وأنا.. أنا كنت أفعل ذلك في الماضي لأديم حضوره، وهن اليوم يمحون بعض وجوده... لم يقلن لي: "سنكتب في الأوراق أنها ماتت، فالمرء يموت في الغربة أيضاً"..

(صحونا ذات فجر، وكانت حبيبتنا، صغيرتنا الأثيرة، تلملم أشياءها الحميمة لترحل طائراً وحيداً أعزل إلا من جناحيه. لم تتردد طويلاً، ودعتنا بقبلات سريعة خاطفة وحلقت صوب الشمال. كانت تعرف المواسم خيراً من أمنا، فأدركت بفطرتها الأصيلة أن موسم الهجرة قد آن... لم تبك ولم تصغ لبكاء أمنا.

اكتفت بأن انتزعت صورة لها من ألبومها الخاص، كانت تبدو فيها وريثة حقيقية للتعب والاسترخاء والإغفاء، وللحلم أيضاً.. ووضعتها في إطار جميل أعدته سلفاً للحظة هذه، فقد كانت مولعة بالتفاصيل شديدة الاعتناء بها. علقت الصورة على الجدار بصمت، وما أن بلغت عتبة الباب حتى استدارت، وبعينين محتقنتين بشتى الأحاسيس بالكاد سمعناها تقول: "دعوني غافية هنا، سأودع أماني معكم، لن أعرف إغفاءة أخرى كهذه.. أرجوكم، أحرسوا نومي لأعود..").

لن تعود اختنا الجميلة..

جرس الباب يدق بوحشية ومعه قلبي.. أحاول أن أجرجر جسدي بخطى رصاصية نحو النافذة لأرى صك اعتراف بالقتل خططناه بأيدينا.. قتلناها إذن، اختنا وتوأم ذكرتنا ووريثة تعب أبينا!!

ألمح هيأة غامضة، لرجل بلا ملامح يقف خلف سور الحديقة، يمد أصابع غليظة تطبق على الأوراق وقد غدا لونها أحمر. تطلعت إليه وعدت أرقب وجه أختنا الجميلة، وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة شفقية. أصابعي كانت حمراء، ووجهي أيضاً. كل الأشياء تلونت بدماء ذلك الغروب.. حتى الذكرة..